

نهضة الصين الفكرية

هي الأصل في ثورتها السياسية

طرف من آثار أدائها ومفكرها في ثوراتها الأخيرة

ملخصة

عن روبرت ميريل بارتلت

أستاذ الفلسفة الغربية في جامعة برلين ومؤلف كتاب الفكر العصري

سارت مع الثورة الصينية السياسية جنباً إلى جنب، ثورات أشد خطراً وأكثراً أهمية في ثقافة الصين وآدابها على حد سواء.

والحق أن تلك البلاد الشاسعة المترامية الأطراف لم تنجب قائداً حرياً واحداً ممتازاً . . كما أنه لم يبرز فيها من الساسة العباقرة إلا الدكتور صن يات صن . نبى الوطنية ، الذى استطاع أن يوفق بين تعاليم كونفوشيوس القديمة ومقتضيات هذا العصر، فبث في قومه روحاً توافقة إلى المعالي والتحرر من رق العبودية والنوم والكسل، تلك الصفات التي كان الشعب الصيني من ضحاياها . . فلا شبهة إذن في أن مفكري الصين ومتأديها هم العامل الأكبر في ثورتها الهائلة التي ما تزال مستمرة

على أن هذا ليس معناه أن ثورة الصين قامت بمجرد القلم واللسان ولم يصحبها استعمال القوة وأراقه الدماء . كلا ، وإنما نود أن نقول إن حملة الاقلام كانوا طلائع الثورة الدموية . . وهالك طرف من آثار هؤلاء الأدباء والمفكرين تبين لك خطر هذه الفئة التي انجبتها الشرق

لديك الأستاذ « ليانج شى - شاو » أكتب كتاب الصين والمقلب بأبى الإصلاح الدستوري وقد اربى سنة الآن على الستين . . . في رأس قائمة المصلحين بأسنة الانلام ، وكفاه فخراً أنه تلميذ فيلسوف الصين الاكبر « كانج يو - وي » وقد اشترك ليانج مع أستاذه في قيادة حركة المطالبة بالاصلاح في سنة ١٨٩٨ وهي الحركة التي

عارضها بغاء عاهل الصين إذ ذاك ، فامر بإبعادهما بغير ما روية ولا تبصر حتى أدى ذلك إلى التهاون حماسة ليانج ، فأصبح من أنصار الثورة بعد أن كان مذهبه التدرج في الإصلاح المنشود بالوسائل السلبية

كذلك كان « ليانج شى - شاو » أول من أنشأ جريدة يومية في الصين (بكين) فضلاً عن اشتراكه في تحرير كثير من المجلات الأسبوعية والدورية مثل « الرأى السياسى » و « العدالة » و « هسين ون » وغيرها . وقد طاف في منفاه بلاد عديدة في العالمين القديم والحديث (أوروبا وأميركا) كما زار اليابان وغيرها من بلاد الشرق وهو لا يفتأ أين حل وأنى رحل ينشر الدعوة لأمته وينفث روح الجهاد وحب الحرية والمعالى في نفوس أبنائها . ولم يعد إلى الصين إلا في سنة ١٩١١ حين دعتة الحكومة التي تألفت عقب ثورة البوكسر ليشارك في وضع النظام الذى تسير عليه ، وما هى إلا أن تألف حزب التقدم (ين شاو - هسى) حتى انتخب رئيساً له ، وتولى في الوزارة التي ألقت آنذاك عدة وزارات

ولعل أظهر المواقف لبسطة نفوذه وعلو مكانته لدى قومه ، موقفه في رفض الاحد وعشرين مطلباً التي وجهتها حكومة اليابان إلى حكومة الصين في سنة ١٩١٥ فأيده الشعب برمته في موقفه رغم التهديدات الخطيرة التي اشتملت عليها المذكرة اليابانية إذالم تجب مطالبتها ، ولكنها تراجعت أمام ذلك الموقف الاجماعى الحازم مما زاد في مكانة ليانج حتى استطاع أن يحصل على تأييد الشعب له مرة ثانية في أخرج المواقف في سنة ١٩١٧ التي دخلت فيها الصين الحرب العالمية منضمة إلى الحلفاء

وقبل أن نعرض عليك طرفاً من آثار هذا الزعيم العظيم . لا نرى بداً من أن نشير إلى أنه معدود الآن من غلاة المحافظين ، وقد كان قبلاً في عداد الثوريين المبهجين !! وما ذلك إلا لأن الأيام قد خلفته ورأها فأصبح مبهج الأمل - بعد تحقيق مطالبه السياسية أو القسم الأكبر منها على الأقل - يدين بالاعتدال في السياسة ، مطالباً بإصلاح داخلية البلاد على أساس انتشار التعليم على أن يسير ذلك سيراً طبيعياً دون لجوء إلى طرفة المذهب الشيوعى التي يميل إليها حزب الأغلبية (الكومنتانج) .. ولكن مواطنيه ما زالوا - رغم عقيدته السياسية - يرون فيه أحد زعماء النهضة الفكرية الحديثة كما يقرون له بالفضل في تعضيد عدد كبير من الناشئة النابهة ، وإن

اختلفوا معه في الرأي السياسى ، ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه أسلوبه الصينى الجليل
وسعيه إلى الإصلاح أنى وجد إلى ذلك سيلا

وليس فى الصين من لم يقرأ كتابه « ين بنج - شيه » الذى يجمع بين دفتيه
أبحاثاً قل أن تجتمع فى كتاب واحد من كتب الغرب ، فهو يشتمل على مقالات فى
السياسة والاجتماع والآداب وكل شئ . ! ! وما ورد فيه تحت عنوان
« الثورة والإصلاح » :

(الثورة هى القانون الطبيعى لرقى العالم وإصلاحه . والإصلاح يجب أن يبدأ
بالشعب وليس بالموظفين (يعنى الحكومة) ويجب علينا إذن أن لا ننتظر الإصلاح
بأينا على أيدي هؤلاء وإنما نبذوه بأنفسنا لننقذها . وليس ثم ما يمنعنا عن النجاح
فى تغيير حالتنا الحاضرة بأحسن منها مادامنا نريد ذلك . على أنه ليست السياسة
وحدها هى التى تحتاج إلى إصلاح . وإنما نحن فى أشد الحاجة إلى رفع مستوى
كل الجماعات والهيئات ولا سبيل إلى تحقيق هذا إلا ببذل الجهود صادقة مخلصه)
وقال فى موضوع بعنوان « تعليم الشعب هو أول ما تحتاج إليه الصين » :

(ان الصين فى موقف خطير جدا الآن بسبب عدم انتشار التعليم الإلزامى . انا نحكم
أنفسنا بأنفسنا الآن وهذا بلا شك مصدر خصب لنمو قوة الأمة ولكن كثيرين من
شبابنا قلقون على مستقبل الصين ، ويخيل لهم أننا نعانى أزمة سياسية شديدة . وفى الحق
أنه من العبث أن نصرف كل اهتمامنا نحو المسائل السياسية وحدها دون أن نغلب بأصلاح
الأساس وهو الأمة . ان الاستعمار (الاقتصادى) متغلغل فى كافة أنحاء بلادنا . .
ليس هذا دليل على أن الصين ينقصها إصلاح شؤونها الداخلية ؟)

هذه هى الروح التى يدأب ليانج على بثها وتعمدها بالكتابة والخطابة والقاء
المحاضرات ، وهويدين بالعقيدة البوذية ، أديب أكثر منه عالماً ، وقد بسط الأستاذ
« ليانج شو - منج » مؤلف كتاب « الفلسفة والثقافة فى الشرق والغرب » رأيه فى أهم
العوامل فى نهضة الصين الفكرية فقال : « هى كتابات ليانج شى - شاو قبل الثورة ، ومجلة
الشباب الحديثة ، لاسيما كتابات رئيس تحريرها تشن تو - سيو بعدها » (أى
بعد الثورة)

وتشن تو - سيو هذا جدير بلقب زعيم الاشتراكيين المتطرفين (الرايكاين)
 أنشأ المجلة المشار إليها في سنة ١٩١٥ وأمكنه - إذ هو عميد كلية الآداب في جامعة بكين
 الأهلية - أن يجمع حوله طائفة من المصلحين تضافروا فيما بينهم على رفع المستوى الأدبي
 والفكري (العلمي) والسياسي (الثوري) في بلادهم. وبالرغم من تقدم هذا الزعيم في
 السن فإنه ما يزال جم النشاط الثوري، مخالفاً في هذا صنوه شي- شاو، إذ هو يجدد
 معارض للثقافة القديمة. ومن أقواله المأثورة:

(التعاليم الكونشوسية يجب أن تبتد، فهاذه التقاليد السقيمة والافكار الجامدة
 إلا قيود يجب أن تنكسر. دماراً أيتها الأوهام، وهدماً أيتها الاصنام، اخلعوا
 ذلك الأسلوب القديم في الكتابة وابتدوا معه طريقة التفكير الحقيقية واطلبوا العلم
 والقوة المادية)

وجاء كذلك في كتابه «موضوعات مختارة» تحت عنوان «تخطيم الاصنام»

مايلي:

(هزلي أن أسألكم لماذا يجب علينا أن نخطم الاصنام؟ هناك أشخاص كثيرون وأشياء
 كثيرة لا فائدة منهم وهم إلى ذلك يلقون من احترام العبادة والتفديس ما تلقى الأصنام.
 إن الشيء الذي لا فائدة فيه، بغض النظر عن نصيبه من الاحترام، يجب أن يخطم ويدمر.
 إن الآلهة والشياطين في السماء أو في الأرض لم يثبتت يقيناً أنها حقيقية. وتلك الدعاوى
 الدينية إن هي إلا كالأصنام في خداع البشر. كذلك العبارات الأخرى من أمثال «هو ذا رب
 الأرباب» و«يسوع المخلص» و«امبراطور السماء» إن هي إلا عبارات وهمية
 تغش الناس بمدلولاتها حتى كانوا في الأزمان السالفة يعتقدون أن الملك هو ابن السماء
 وكانوا يقدسونه ويعبدونه ويعتقدون بفضل وقوته على سائر أهل المملكة. وقدمت
 هذه الفكرة للملك طريق حكم بلادهم حكماً مطلقاً استبدادياً، على أن الملوك والبراطرة
 لا يستطيعون أن يأتوا بالمعجزات، وليس لهم من عماد أو سند لإقنوع الشعب، وهاكم
 الامبراطور «يوني» عاهل الصين السابق ويقول لا يقصر روسيا أصبحت بعد خلعها
 عن عرشها أشد حاجة إلى الرحمة والاشفاق من أي من سائر الأفراد.)

وقال في كلمة أخرى في الموضوع ذاته

(اخلعوا نير الأوهام والعبادات الخرافية . ان العقائد القديمة بزخرفها والسياسة العتيقة والآداب للبائدة ، كلها أصنام لا طائل تحتها ويجب أن يقضى عليها . لأننا لا نستطيع الجمع بين الحقائق التي يدين بها أهل هذا العصر وبين تلك المعبودات)
وكتب عن . النهضة الأدبية ، فقال :

(ثلاث قواعد جديدة بأن تكتب فوق علم نهضتنا : الأولى أن ننبذ الأدب المتأخر المغالى البليل ، ونحل محلّه الأدب البسيط المنسجم اى الأدب الشعبي ، والثانية ستبدل الأدب القديم المسرف ، بالأدب الجديد الصادق الواقعي ، والثالثة أن تهجر الأسلوب المعقد المتلوى الذى يقصد منه عرض مقدرة الكاتب ووفرة اطلاعه إلى ذلك الأسلوب البسيط العادى الاجتماعى الخالى من التكلف ... إن المدنية الأوروبية لم تقم على السياسة والعلم وحدهما ، ولكنها مليئة بالأدب الرائع ، ولأى أحب روسو وزولا وكانت وباكون ودروين وكثيرين ممن لا يتسع مقال كهذا لذكرهم جميعا ، فهل لدينا هنا فى الصين فرد واحد فى عظمة واحد من هؤلاء ؟ انى لست أخشى أن أصرح بأنى إذا وجدت من لا يحترم شرفه وسمعته بانضمامه إلى صف أولئك الثمباطن الثمانية عشر — بقصد المفكرين المعارضين لاصلاح الآداب وتطورها — فانى مستعد أن أسحب أضخم مدفع وأتقدم فى الطليعة لمحاربة هؤلاء الأعداء)

وقد أبدى الاستاذ تشن رايه فى الجدل الذى قام أخيراً بين « العلوم وفلسفة الحياة ، أن العلم مقدم على الميتافيزيقا ، وقد أبدى هذا الرأي فى مقدمة كتابه « الموضوعات المختارة » حيث قال :

(لقد قسم « كونت » تقدم المجتمع الانسانى إلى ثلاث مراحل ، ونحن (الصينيين) ما نزال فى مرحلة الاعتماد بالخرافات الدينية : أليس أغلبنا ما يزال يؤمن السحر والطوائع (البخت) وغيرها من الخرافات ؟ كذلك تجد بين المتعلمين من يؤمن بالميتافيزيقا)

وذكر فى موضع آخر من الكتاب ذاته :

(لقد أبدى بعضهم أن الصين محتاجة إلى قوى ثلاث ، روح روسية ، وعلم

ألماني، ورأس مال أميركي. ولكنني أقول أننا لسنا بحاجة إلى أموال الأميركيين وإنما نحن محتاجون للجمع بين الروح الروسية والعلوم الألمانية. وما يؤسف له أن الناس في هذا العصر يرجون بالثروة الأميركية، ولكنهم لا يحفلون بالعلوم الألمانية، كما أن الروح الروسية تدخل الرعب في قلوبهم)



ويتفق مع « تشن تو - سيو » في العقيدة والزعة الفكرية مؤلف قدير ومادى مشهور هو « ووتشي - هوى » الاشتراكي المتطرف، وبالرغم من كبر سنه فإنه هو الآخر في طليعة المصلحين الثوريين حتى ليحسب أحياناً في عداد الفوضويين، وقد لبث زمناً طويلاً منفياً بسبب عقيدته، وقد ألبسته ديمقراطيته واستقامته في الحياة احتراماً كبيراً، واليك ترجمة مختصرة لحياته من قلبه قال

(إنني الآن في الستين من عمري، وقد كنت في السابعة حين أعلن إمبراطور اليابان عزمه على إصلاح إمبراطوريته، وكنت قد بدأت إذ ذاك أتعلم الحروف (الكتابة) الصينية وأحفظ الكتب الأربعة (المقدسة) والخمسة المنتخبات الأدبية القديمة Classics وأشحن ذهني بالمقطوعات المشهورة. فلما بلغت العشرين بدأت أهتم بدراسة النقد وأصبحت من أشد المعجبين بمبادئ أسرة «هان» واتجهت مطامعي إلى كتابة فصول في النقد إذ كنت أجد المجال فسيحاً أمامي في أحوال الصين وتقاليدها. وأقد كتبت إذ ذاك عدة مقالات مبيجة ضد الكنائس الأجنبية وحرضت الناس على حرقها، وكنت أعارض فكرة الجمهورية استناداً إلى التعاليم القديمة، وكان الرأي عندى أن الإمبراطورية (البلاد) الواسعة لا غنى لها عن ملك... وفي الثلاثين من عمري حضرت إلى بكين لتأدية الامتحان ولكنني سقطت. وكنت إذ ذاك أقيم مع طالب ناجح هو « وانج بنج - ميان » فزارنا يوماً « تشانج تشين، تليد رئيس الوزارة في ذلك الوقت » ونج تسينج - هو، وأخبرنا أن مفكرى الصين وقادة نهضتها قرروا تأييد رئيس الوزارة في موقفه الذي قرر فيه إعلان الحرب على اليابانيين الأقزام. وبعد أشهر قليلة أذاع الإمبراطور نطقاً سامياً أمر فيه بضرب العدو الضربة القاضية. وكان الناس يعتقدون وقتئذ أنه لن تمضي

أيام قلائل حتى تسحق الجزر اليابانية الثلاث عن آخرها . ولكن أخبار الحرب جعلت تتوالى من سيء إلى أسوأ ، وبعد أربعة أشهر قطعت رأس القائد الصيني الذي خسر المعركة على حدود منشوريا . في ذلك الوقت قدم « كانج يو - وي » مذكرته المشهورة إلى الامبراطور ونشره ليانج شي - شاو ، قائمة الكتب الاجنبية التي يجدر بالناشئة الصينية مطالعتها ودراستها فها وجدت خيرا من أن أسير في ركاب هذين الرجلين العظيمين ... والآن ! اليس من دواعي الأسف أننا بعد مضي ثلاثين سنة على هذا الحادث الجلل ما يزال تعليمنا صوريا وصناعتنا كما هي لم ترتق ولم تتقدم والاصلاحات التي نحن في أشد الحاجة إلى اجرائها ما تزال في المهد ؟ نرى الاجانب يحملون من عندنا التماثيل الصينية والمقالات الادبية القديمة من نتاج ذلك العقل البالي ولا يزالون ينقبون بين الأوحال كأنما في ذلك الماضي يجدون الطعام المقدس !! وها انذا الآن ما أزال مضطرا لان أكتب مقالات مثل التي كان « ليانج شي - شاو » يكتبها منذ ثلاثين سنة !!

أواه أيها الشرق المريض ، حقا يظهر أن مرضك مستعصى الشفاء !)

والمستر « وو » من أشد معارضي شاعر الهند الاكبر وفيلسوفها المشهور طاغور ، وهو لم يتخرج عن نقده قدامرا الاذعا خلال زيارة الشاعر الهندي لبكين ، والحقان « وو » له أسلوب خاص في الكتابة يمزج فيه اللغة الفصحى باللغة العامية وتتخلل كتاباته لذعات حادة في كثير من الجرأة والصراحة . من ذلك حملته العنيفة على « تشانج تشون - ماي » زعيم المدافعين عن النظرية الروحية في « الجدل بين العلم وفلسفة الحياة » فقد سماه هو وانصاره « طواغير » (جمع طاغور) الهند . وللمستر « وو » مؤلف قيم في هذا الباب أطلق عليه (نظرية جديدة في خلق العالم وفلسفة الحياة) جاء فيه بآراء طريفة وأنكر فيه وجود الله . ويبدأ الرأي القائل بأن الاساس المادى أقرب إلى التصديق من الاساس الروحي وختم تلك الرسالة بإعلان أن عقيدته انما هي الفلسفة القوضوية . « كل انسان يعمل ما يستطيع ويحصل على ما يريد » . وهو إلى هذا وذاك متفائل بالحياة بدليل ما جاء في إحدى كتاباته حيث قال . « سألت أحدهم : هل أصبحت متشائما ؟ وهل قعدت عن العمل ؟ الحق اني قعدت عن العمل زمانما ، ولكنك لن تجد ابدا كلمة التشاؤم في قاموس بروشي - هوي الفلسفي » .

ولن تكور ، دراسة الصين المعاصرة كاملة من غير إشارة إلى (المرحوم) الدكتور

صنّيات صنّ واضع كتاب النظريات الشعبية الثلاث ، الذي أكسبه لقب «ابو الجمهورية الصينية» ، ومؤسس أول حزب سياسي في تاريخ الجمهورية

ولقد كان الكثيرون من زعماء الاشتراكيين المتطرفين (الراديكاليين) أصدقاء للدكتور صن فتأثروا بتعاليمه حتى أن ليانج شى - شاو ، ولو أنه يميل إلى مبادئ حزب الشعب ونظرياته ، يقود حزب التقدم الاشتراكي غير المتطرف

أما «ووتشى هوى» فإنه كان ملازماً للدكتور صن أثناء إقامته في لندن وقد وضعاً أثناء إقامتها فيهما الخطاط اللازمة لينهضاً بإبادهما ويلهما فيها نار الثورة

وهناك كثيرون غير هؤلاء كانوا محيطين بالدكتور صن وقد كان هؤلاء صفوة متعلّى الصين ومتأديبها وهم الذين اذكو انوار النهضة في بلادهم وان كانت قد ذهبت تلك الوتة بارواح كثيرين من أخوانهم ، إلا أنها ابقظت الباقيين بعدان كان الجميع في سبات عميق . . الموت أفضل منه

وبالرغم من أن حزب الشعب قد انقسم إلى نصفين أحدهما شيوعي والآخر وطني ، فان شخصية الدكتور صن ما تزال مرفرفة على التسمين . ويهتدى أفراد كل منهما بضوئها

ولنقرب شخصية الدكتور صن وأثرها في الصين إلى ذهن القارئ العربي نقول انه عندهم قديكون أجل من سعد باشا في مصر ، لو أن في الاجلال تفاوت ! - فآلاف من صغار الطلبة في الصين يقرأون كل يوم وصيته الأخيرة لقومه ، تلك الوصية التي يكادون يقدسونها في الصين ، لولا أن الحركة الفكرية هناك تحاول إبعاد الناس عن فكرة التقديس والعبادة على أنواعها . . . هي حركة تحرير الفكر . وآلاف من الموظفين والمشتغلين بالسياسة وبهضة بلادهم ما يزالون يطالعون إلى اليوم البرنامج الذي وضعه صنّيات صن للسير بمقتضاه . . أضيف إلى هذا ان اثنتي عشرة جامعة في الصين تحمل اسمه

ولم يكن الدكتور صن سياسياً محترفاً ، بل إنه ترك مهنته في الطب واشتغل بالصحافة وكان ثورياً ورجلاً فاتحاً يوتوياً .

ومن حضروا الدكتور صن وتأثروا ببيئته . لو سن . زعيم القصصيين الصينيين .
 وأحد أعمدة حركة الثقافة الحديثة في الصين ، واسمه هذا مستعار يقع به على كتاباته
 ولكن اسمه الحقيقي « تشو شو - جن » . وقد قضى عشر سنوات يتلقى العلم في اليابان
 وبدا ميله للطب ولكنه كان يقضى جزءا كبيرا من وقته يطلع الادب الروسى وغيره ،
 وكان يرافقه أخوه « تشو تسو - جن » ، وهو الآن معدود أقدر كتاب الصين النافرين
 قاطبة ، وقد تعاون الاخوان في ترجمة كثير من القصص الروسية والبولونية وغيرها
 من قصص بعض ممالك جنوبي أوروبا . وكان ذلك أثناء دراستهما في اليابان ثم عاد
 الاخوان الى بلادهما وقدرها نفسيهما للادب ، وانصرف « لو سن » عن الطب . كما انصرف
 قبله تشيكوف وشينزلر Schnitzler واويفر وندل هولمز . لغزو ميادين الادب .
 ومع أنه ما يزال في الثامنة والاربعين من عمره الآن ، فإنه يعتبر سيد الكتاب
 الصينيين المعاصرين في الادب الواقعى لاسيما القصة (الصغيرة)

وهو متأثر جد التأثر بالادب الروسى الى حد أنه قال « لقد وجدت في ثقافة روسيا
 ما لم أجده في سواها » ، والحق ان هناك علاقة عاطفية بين الصين وروسيا ، ورابطة
 طبيعية لتوافق مزاجيهما ، وان أحب الكتاب الى ليو تشيكوف ، كما أحب أيضا
 جوجول وتو رجنيف ودستوفسكى وجوركى وتولستوى واندرىف ونيشيه وشيلر .
 ولقد ترجم من الادب الروسى في الصين أكثر مما ترجم من أية لغة أخرى ، وهذا
 راجع الى تلاؤم الظروف السياسية والروحية في البلدين ، اذ ان الصين تواجه نفس
 العقبات الاجتماعية التى يواجه القصة فى ذهنه وقلبه للقضاء عليها . ثم قال « وقد يكون
 المسترلينج شى - شاو يخاف روسيا . أما أنا فلا »

ولا يكاد عدد من مجلة الشباب الحديث الصينية يخلو من قصة لـ « لو سن » ، وقد بدأ ينشر
 هذه القصص منذ سنة ١٩١٨ ، واذ يكتبها تحت عنوان « مذكرات مجنون » ، وقصصه
 تحمل بين طياتها روحا من المطف والحنان تذكر قارئها بدستوفسكى ومكسيم
 غوركى . ومما قاله عنه رومين رولاند القصصى الانجليزى الكبير « هذا نوع من الفن
 الواقعى المفعم بالسخرية اللاذعة والتهكم الحار . ولن يفارق مخيلتى ابدا ذلك الوجه
 العابس المتألم الذى صورته هذا الكاتب في قصته التى عرض فيها فلاحاً صينياً جاهلاً
 تمرد تفهمه معنى الثورة فى سبيل انهاض بلاده .

ومن أقواله . « إن الكونفشيوسية والبوذية قد ماتتا ولن تقوم لهما بعد اليوم قائمة . ليس هناك إله ، العلم والاخلاق وحدهما يكفيان . إن الصينيين ليسوا متدينين بطبيعتهم ، وإنما هم مصابون بداء الكسل . وستقف الحروب (الداخلية) عندما يهبون للعمل (تأمل !) . . . ولن يلبث مرض الصين أن يشفى إذا ما نفشى فيها العمل والعلم »

...

والشاعر القصصى « كرمه - جه » مثال آخر من أمثلة رجال الثورة المتأدين وقد تلقى هو الآخر علومه الابتدائية في اليابان - ولا يخفى أن اليابان مشربة بالروح الغربية - ولم يلبث أن أصبح من الكتاب المبكرين ، وشاعراً ثورياً ذرب اللسان وهو يشترك مع طائفة من أقرانه في تحرير مجلة « الفيضان » وغيرها من الصحف لاشتراكية المتطرفة ، ومن مقال له بعنوان « ضمير الفنان » يقول

(لقد امتدحتني البعض وذموني آخرون بشأن المقالات الاجتماعية التي كتبها أخيراً في مجلة الفيضان . ويقول خصومي - أنت معروف بأنك أديب ، ويكفى الأديب أن يجول في الشعر والقصص ما شاء له أدبه ، وأما لا يجدر به أن يناقش النظريات الاجتماعية . . والظاهر من هذا أنهم يريدون حرمان الأديب من طرق ميدان من ميادين الفكر . وليس لي ما أرد به على هؤلاء . إلا أن أقول لهم إن كل منصوص كان مؤلفاً روائياً وبرودون الفوضى كان في أول عهده شاعراً . . ويبدى فريق آخر أسفه على أنى لم تظهر لي قصص ولا شيء من النظم منذ بدأت أوجه همتي نحو المسائل الاجتماعية ، ويؤيد هذا الفريق حقه في الأسف بأن خروجي من صفوف الأدباء خسارة فادحة !! إنى أشكرهم على هذا المديح . . وأطمئنتهم بأن ليست هناك أدنى خسارة . ولكننا أقول للاولين أنه لم يحدث في أية أمة أن قال أحد للادباء لا تكتبوا في المسائل الاجتماعية !! إن النشاط الفكري للانسان لا يمكن حده وقصره على ناحية دون أخرى . . ولا شك أن لكل أديب مثلاً أعلا في الاخلاق والجمال والعاطفة والذخاء يعمل لتحقيقه ، فليس هناك إذن ما يمنع الفنان من أن يصل ويحاول في كل ميدان من ميادين الفكر مسترشداً بالهامه ومهتدياً بمثله الأعلى . . إن العالم

ليس به أحد مثل روبنسن كروزو يعتزل الدنيا بما فيها ليعيش في جزيرة مهجورة قاحلة ١١ والانسان لا يستطيع إلا أن يحتك بغيره ويتأثر بالروح الاجتماعية حتى يتابعها بنشاطه ، إذ يجب أن يكون هناك تلاؤم بين العمل وبين الشخص أو الهيئة التي يراد بها أن تنفع من نتائج هذا العمل ، على أن الفن ذاته هو نتاج العصر والبيئة . فالشعراء الذين ماتوا قبل اختراع السينما لم يكن في استطاعتهم أن يصفوها متأثرين بالمناظر التي تعرضها مثل الشعراء الذين عاشوا في زمنها . فكيف إذن يستطيع الكاتب أن يمتنع عن الخوض في المسائل الاجتماعية التي يعيش في كنفها ؟

ثم إن الفنانين من وجهة النظر الوصفية ، يستطيعون تشخيص الادواء الاجتماعية أكثر من غيرهم ، لأن حسهم أدق من حس الرجل العادي ، وهم أول من يشعر بالآلام المظلومين واناتهم ، وينرون الطريق للإصلاح ، بل إن تقدم الفن نذير الثورة — أو يشير لها ؟ — والثورة الفرنسية ذاتها قد قامت على أسس الآداب الإيطالية وعلى تعاليم روسو وفولتير ، وثورة العمال العالمية خلقتها كارل ماركس وقد كان شاعراً في شبابه ، كما أن لينين وتروتسكي زعيما الثورة العالمية ليسا إلا أدبيين

* * *

وفي زعماء النهضة الفكرية في الصين من هم في عداد الشبان ، مثل « هوشى » وهو دكتور في الفلسفة من جامعة كولمبيا ، وبالرغم من حداثة سنه فإنه ذو نفوذ كبير لاسيما بين أوساط الطلبة ، وله مؤلف قيم باللغة الانجليزية بعنوان « وصف الأسلوب المنطقي في الفن » An Outline of the Logical method in China دل فيه على علو كعبه في الثقافة الغربية ، وهو الآن معدود أكبر مستغرب (على وزن مستشرق) في الصين ، وقد وضع عدة روايات أدبية تعد من مفاخر هذا العصر ، وطبق النقد التاريخي على فلسفة الأديان في موضوعات جمة بأسلوب جميل رشيق ، كما عمل على ترقية اللغة الوطنية بأن كتب أشعارا بلغة وسط بين العامية وبين الفصحى ، وعرف قومه بكثير من فلاسفة الغرب وكتابه حتى أصبح حجة فيما اختص به ، وهو يصدر الفينة بعد الفينة كتباً صغيرة سهلة المأخذ واضحة العبارة أسماها « رسائل هوشى » يرمي بها إلى نشر المعرفة والآراء الحديثة ، ومن بين تلك

الرسائل واحدة بعنوان « معنى التجديد Renaissance » كتبها عام ١٩١٩ جاء فيه (يقول تشن تو - سيو إن التجديد الأدبي العلمي يدعم الديمقراطية وينشر الروح العلمية . فلاجل أن ندعم الديمقراطية يجب علينا أن نعارض الكونفوشيوسية والتقاليد والعادات القديمة ، ولأجل أن ننشر العلم ونوره لا بد لنا أن نحارب الفن القديم والعقائد القديمة والآداب العتيقة والثقافة القومية البالية

(وهذا ولو أنه واضح جلي إلا أنه ليس بمنطقي . لنفرض أن سائلا ألقى علينا هذا السؤال - لماذا تريد أن ننشر العلوم وندعم الديمقراطية ، ونعارض الثقافة والآداب القوميتين ؟ لاريب أن الجواب على ذلك هو أن الثقافة والآداب القوميتين مضادتان للعلوم والديموقراطية . وهناك سؤال آخر - كيف السبيل إلى مقاومة المعاهد والهيئات المخالفة لهذا المذهب ؟ وهذا في الحق سؤال ليس من السهل الاجابة عليه . والرأى عندي أن المعنى الصحيح لاهياء العلوم هو توجيهها نحو اتجاد جديد وخلق روح جديدة ، سمها روح النقد إذا شئت ، وروح النقد هذه هي اعادة النظر فيما هو حسن وفيما هو غير حسن

(فأولا يجب علينا البحث في العادات الموروثة . هل هي تبرر بقاءها ؟ ثانياً - هل آراء الحكماء الأقدمين ما تزال صحيحة إلى اليوم ؟ ثالثاً - هل تلك المعتقدات السخيفة التي تسيطر على عقول أغلبية الجماهير تقوم على أساس ؟ هل يجدر بنا أن نسير على نهج أسلافنا وتقاليدهم ؟ أم هل هناك أشياء جديدة تعود علينا بريح أكثر ؟ (قال نيتشه - في هذا العصر قد حان وقت تصفية جميع الاشياء النفيسة وتميزها على بعضها . وهذا هو التفسير الدقيق لعبارة « الروح النقدية » . لقد كان ناساً يضعون القيود في أقدامهم ليحتفظون بصغر حجمها مبالغة في تجميلها ، ولكننا أصبحنا الآن نستنكر هذه العادة القديمة الفظيعة . . ومنذ عشر سنوات (أي قبل سنة ١٩١٠) كان الضيف اذ ينزل على قوم يقدمون له الأفيون الذي حرمت شرائع هذا العصر تعاطيه . كذلك كان « كاتنج يو - وي » قبل عشرين سنة من أنصار حزب التقدم ، وهو الآن من المحافظين . فهل غير كاتنج يو - وي أي شيء في نفسه ؟ كلا ، وإنما الشعب هو الذي غير آراءه ، وهذا هو الذي اسميه تصفية الاشياء النفيسة وتميزها على بعضها) . وجاء في مقال آخر له بعنوان « نظرنا الى المدينة الغربية الحديثة » ونشر في يوليو

(يقول بعض الناس في هذه الايام باكرام لا تقوم على أدنى أساس فضلا عما تنفسه من سموم في أفكار الجمهور إذ يزعمون أن المدنية الغربية تقوم على المادة وحدها بينما تقوم مدنية الشرق على الروح، وينفذون من تلك السبيل الى وصف المدنية الغربية بأشنع الصفات، و الاشادة باحترام المدنية الشرقية... ان روح المدنية الغربية تمتاز بأنها تعترف الى أقصى حدود الاعتراف باهمية التمتع بالمادة، وعلى ما يرى تقوم المدنية الغربية على ثلاث قواعد رئيسية أولا - ان الغرض من الحياة هو البحث عن السعادة، ثانيا - ان الفقر يكون خطأ بناء على ذلك، وثالثا - ان اعتلال الصحة خطأ كذلك (صحيح ان النظرة السطحية في الفنون والعلوم والقوانين الغربية قد توحي الى الناظر وتظهره على اشياء كثيرة ظلمة غاشمة مخربة في تلك المدنية، وليكننا مع ذلك لاستطيع إلا ان نسلم بأن الروح الحقيقية لها انما هي اسعاد البشر وزيادة نفاسة الحياة وقيمتها، ولنتساءل الآن - هل صحيح ان هذه المدنية التي تعمل لرفع مستوى الحياة قد أهملت حاجات النفس والعقل؟ هل هي في الحقيقة مدنية مادية صرفة؟ ليكن جوابنا على هذين السؤالين في جراحة. كلا، ان المدنية الغربية لاتهتم بأي حال حاجات النفس البشرية، بل هي قادرة على اشباع نفس الانسان وعقله إلى حد لم تحلم به المدنية الشرقية في أى عصر من العصور. فأن هذه تحت على الرضى بما هو مقسوم، وتنادى بفضيلة الفقر، وسيلها لارضاء السماء (الله) هو عدم الاعتراض والمقاومة، والصبر على الآذى، بينما الأخرى تبث تعاليم عدم الرضى بالمقسوم، ولا بالفقر، والرغبة عن احتمال الآذى، وتناحر البقاء، وهي أبدا ترمى الى تقدم النوع البشرى وتحسين أحواله. وبينما تسمع الشرقى يقول - «هكذا اراد الحظ» تجد الغربى يقول - «ان التفاوت في الغنى والفقر يرجع أثره الى البيئة والنشأة، فإذا كانت البيئات رديئة فإنه يمكن اصلاحها، والغريبون أبدا في نزاع، ليس في سبيل السلطان والمال، وانما هم يحاربون في سبيل الحرية والاخاء والعدالة. والتناحر على البقاء الذى تثيره مدينتهم ليس تناحرا يقصد به الى مصلحة الأفراد، وانما يرمى إلى اىصال الخير الى أكبر عدد ممكن من المجتمع. وبديهي انه لا يمكنك اىصال الخير الى الناس بالجلوس مترباعا مرددا اسم بوذا!! بل يجب عليك ان تعمل بجهد غير قليل ولا مليل لتصل الى ذلك (والآن يا اخوانى - اى المدينتين صادفت هوى في قلوبكم؟)